

## التداولية في النحو العربي

أ.م.د. فيصل مفتن كاظم  
كلية التربية الأساسية - ميسان - جامعة البصرة

### المقدمة:

وصف لكل ما كان نطاقاً مكانياً وزمانياً لحصول التواصل والتفاعل . ويتميز المجال التداولي من غيره من المجالات الإجرائية بمبدأين اثنين أولهما مبدأ التطبيق الذي يميزه من المجال الثقافي والاجتماعي ، والثاني مبدأ الجمع بين التحقيق والشمول الذي يميزه من المجال التخاطبي والذي يتفق معه في أنه يتعلق بالأقوال والمعارف والمعتقدات المشتركة ويختلف معه في أنس هذه العناصر تستحضر عند المتخاطبين على نحو جزئي وأنّي في المجال التخاطبي (( بينما يتناولها مجال التداول بوصفها عناصر تداولية

يحاول هذا البحث إيجاد مقاربة جديدة لموضوع العلاقة بين النحو العربي وبعده التداولي ، وبالتحديد العلاقة بين منكلم اللغة ومنتقبيها ، والمجال التداولي أو مجال التداول النحوي نظرية في الممارسة التراثية ، وهو ما يعني وجود مجالات تداولية كثيرة ومختلفة ، في الممارسة النحوية على مستوى التفاعل الاجتماعي ، والتداول وصف لكل ما كان مظهراً من مظاهر التواصل والتفاعل بين مستخدمي اللغة ومنتقبيها ، كما أن المجال في سياق هذه الممارسة هو

مستعملة استعمالاً شاملاً ودائماً يمدُّ بها مقامات الكلام في جميع أزمعتها  
وأمكنتها))<sup>(١)</sup>.

ولكي نجعل لإجراءاتنا النحوية صدىً مقنعاً لا يذُّ من التعريف بالتداولية  
من وجهة نظر لسانية ، إذ يرى الدكتور مجيد الماشطة أن التداولية " تعني  
عند رائدها الأول جازلز موريس : دراسة العلاقة بين العلامات ومفسريها ،  
وبما أن كل مفسري العلامات كائنات حيّة فمن الصواب القول أنها تعني  
بعملية إنتاج اللغة وبمنتجها ، وليس فقط بالنتاج نفسه ، أي باللغة ، كما  
تُعرف أديسن التداولية بقولها: " إنها تدرس كيف يستخدم المتكلمون اللغة  
بطرائق لا يمكن التنبؤ بها من خلال المعرفة اللغوية فقط ، وكيف يتوصّل  
السامعون إلى الأسس التي يعتمدها الناس في تفاهمهم " (٢) .

وظلت التداولية من الحقول المنبوذة في لدراسات اللسانية الحديثة ،  
كما يرى الدكتور سمير الخليل (( فهي حق لسانی مانس وغائم فيه كثير من  
التعقيد والغموض ... وقد وصفها أحد اللسانيين الإيطاليين بأنها: « صندوق  
قمامة الأبحاث اللسانية » ، ويعني ذلك أن مهمة التداولية تنحصر في معالجة  
المشكلات اللغوية الهامشية التي لم نتاولها اللسانيات في دراساتها الصوتية  
والتركيبية والدلالية))<sup>(٣)</sup>.

وهناك من ترجم التداولية إبالقصدية) و(التبادلية) تسعى إلى ضبط  
العملية اللفظية من حيث هي فعل تواصل يتحقق في موقف سبقي ، (( ولعل  
الحديث عن التداولية يكتفه تعقيد بحيث يصعب على المتتبع للسانيات

(١) أصول الحوار وتحديد علم الكلام طه عبد الرحمن : ٢٤٤ .

(٢) ما التداولية ؟ د . مجيد الماشطة . محور الأدب النقدي (التداولية بوصفها منهجاً  
لتحليل النص الأدبي) / صحيفة الأدب . العدد ٥٨ / السنة الثانية في ٩ / شباط  
٢٠٠٥ . ص ١٦ .

(٣) مل تصحيح التداولية المنهج النقدي القادم / د. سمير الخليل / صحيفة الأدب / الأدب  
النقدي / صحيفة الأدب - العدد ٥٨ / ص ٢٢ .

المعاصرة أن يُميّز الحدود الفاصلة بين المجالات اللسانية المعروفة والتداولية . وقد تألفت علاقات اللسانيات بالتداولية بظهور (اوسنين) و (ديكرو) حينما قدّموا للغة مفهوماً جديداً مرتبطاً بالممارسة والاستعمال (1).

### والتداولية كما يقسمها الباحثون ثلاثة أنواع :

١- التداولية اللفظية (لستيات التلّفظ): وتبناها (شزل موريس) وتُعنى بوصف العلاقات لموجودة بين المعطيات الداخلية للملفوظ وخصائص الجهاز التلفظي أي (المتكلم والمخاطب وصفة للحطاب).

٢- التداولية التخاطبية (نظرية أفعال اللغة):

وتبناها (جين اوسنين) و (سيرل) وتُعنى بالقيم التخاطبية المضمرة داخل الملفوظ والتي تسمع بالاشتغال كفعل لغوي.

٣- التداولية التحاورية :

وقد نتج تطورها عن استيراد الحقل اللساني للأفكار التي أسسها أصلاً الاثنولوجيون وتشغل بالحوارات ، وهي تبادلات كلامية تقتضي خصوصيتها أن تتجزأ بمساعدة دوال لفظية (٣) .

فسمّ شومسكي الدرس اللساني ، كما هو معروف على (المقدرة) و (الأداء) ، وتمحورت دراساته النحوية حول المظهر اللغوي للجملة وتحليل المستويات التركيبية ، وهو ما يعرف بالقواعد التوليدية . وإذا كان مجمل اللسانيين أكدوا دراسة المستويات المحسوسة المتجسدة في اللغة ، فقد أشار إلى ذلك من قبل (دي سوسور) في دراساته (العلامات) ، وأقرّ شومسكي بوجود مستويين متميزين للجملة وهما البنية السطحية أو الظاهرة التي

(2) التداولية اللسانية. د . السعيد بوطاجين (الجزائر) مسحوب من الإنترنت صحيفة

الأسبوع / العدد / ٩٢٣ في ١١ / ٩ / ٢٠٠٤ / ص ٤ .

(3) ينظر : بل شخص التداولية المنهج النقدي القادم / ص ٢٠ .

تشير إلى المستوى التركيبي أو النحوي لها ، و البنية العميقة التي ترتبط بالدلالة . وكمحصلة لتدريس اللساني النظري طرأ تحولاً جوهرياً على النظر إلى (اللغة) و آليات دراستها وتحليلها فأصبحت اللغة لدى (دي سوسر) وجماعة براغ والبنويين الأمريكيين (( نظاماً في العلاقات ، أو بمعنى أدق مجموعة من الأنظمة المترابطة فيما بينها ، إذ لا تتمتع العناصر بالأصوات والكلمات بأي قيمة مستقلة خارج العلاقات التي تربطها بالعناصر الأخرى ، فيظهر هذا النظام النحوي المضمرة في كل لغة من اللغات وعند كل المتكلمين بهذه اللغة ))<sup>(1)</sup> .

وقد أفادت التداولية في تناميها في انشغاق بعض تلامذة شومسكي زائد المدرسة التحويلية لتطرقه في انتهاج الشكلية المجردة ، وأخذوا وجوب استناد الوصف النحوي إلى (المقدرة) فقط أو الإمكانية اللغوية أو المعرفة اللغوية الموجودة في ذهن المتكلم وقد استبعد الأداء قال شومسكي: " أن الأساس هو النحو وألحق الدلالة والصوت به ، أما المنشقون مثل اندالين الثوليديين فقد أخذوا من دلالية قاعدة لوصفهم اللغوي وبنوا مكوني النحوت والصوت عليه . والمهم أن التداوليين دعوا إلى لاعتماد على الأداء اللغوي أساساً للتدريس اللساني ونأوا عن المقدرة اللغوية لكونها مجرد تجريد ، ((فالتساينات دراسة اللغة بحد ذاتها ، أما التداولية فدراسة اللغة كما يستعملها الناطقون بها ضمن مقاصدهم وتحديداتهم))<sup>(2)</sup> .

(1) مدخل إلى السيوطيا . نصر حامد أبو زيد وسيرا قاسم / مقالات مترجمة ودراسات : ص ١٥ .

(2) ما التداولية ؟ د. مجيد الماشطة / محور الأديب النقدي (( التداولية بوصفها منهجاً .. )) : ص ١٧ .

## أصول المجال التداولي في النحو

يقوم مجال التداولي تراثياً على ثلاثة أصول أو أقسام هي : العقيدة ، واللغة والمعرفة<sup>(٢)</sup> وهي متداخلة فيما بينها وظيفياً باعتبار الاستعمال ، إذ لا تتعين الوظيفة التداولية لكل قسم إلا إذا استعمل باعتبار الاستكمال ، حيث لا تكمل الوظيفة التداولية لكل قسم إلا إذا تعلق بالفسمين الآخرين، كما تنفرع هذه الأصول على مبدأ التفضيل للتداولي العام ، وهو الذي يقضي تراثياً بأفضلية العقيدة الإسلامية ، وأفضلية اللغة العربية و أفضلية المعرفة الإسلامية العربية . وقد وظفنا نظرية المجال التداولي في النحو - في هيكلها العام - ((ليس لأنها تمدنا بجهاز ضخم مفاهيمي صوري ومنهجي يمكننا من قراءة موضوعنا الذي نحن نصنّده حسب ، لأن النظرية تمثل لحظة من لحظات الوعي ))<sup>(١)</sup>، ونحن في بحثنا هذا لذي نعدّه إسهاماً متواضعاً في بناء صرح اللسانيات التداولية العربية (( فاكشف الأبعاد التداولية للنحو فتح آفاقاً أرحب ، وأنتج أسئلة جديدة ستكون مسوغاً للاعتراف بالتداولية ، كما أحدث بحث أفرزته اللسانيات الحديثة ))<sup>(٣)</sup> لنحاول أن نجد العلاقات النحوية في مجالها التداولي التواصلي الواقعي .

جاءت الدراسات التداولية لتبتعد كثيراً عن نظريات شومسكي كما قلنا بدراسة (المعنى) المتداول للجملة . ويفترض لعالم اللساني (ليتشر) أن دراسة النحو (النظام اشكلي لمجرد اللغة) (التداولية) (مبادئ اللغة في التداول والتخاطب) هما حقان متكاملان في الدراسات اللغوية وليس

(٣) أصول الحوار وتجديد علم الكلام : ص ٢٤٤ .

(١) النحو العربي والمنطق الارسطي / دراسة حضريّة تداوليّة / الازهريّ

الريصاني ١٨ .

(٢) لبعث التداولي عند سيوييه / مقبول ادريس / مجلة عالم الفكر / المجلد ٣٣ في

يوليو م/ص ١٤٦ .

متعارضين تماماً ((ويعتمد التفسير التداولي على لمظاهر الاتصالية للغة،  
فبينما تكون التفسيرات النحوية شكلية أساساً تتحرك التداولية على المستوى  
الأدبي للجملة ، ويعرف (المعنى) في التداولية بالإحالة على المتكلم أو  
مستخدم اللغة بينما المعنى دلاليًا يُعرف بأنه أحد خصائص الجملة في لغة  
معينة بصورة مجردة عن أي موقف معين أو متكلم أو مستمع))<sup>(٣)</sup>.

وهذا التصور التداولي للمعنى لا يفترض تلازماً بين (الشكل النحوي  
المنطوق ، وما يحققه من حدث كلامي ، فالجملة المتماثلة نحويًا يمكن أن  
تعبّر عن أحداث كلام متعددة ، وبالمقابل فحدث كلام معين يمكن تحقيقه  
بأكثر من شكل ، وبذلك يصبح المعنى كامناً في السياق وليس حقيقة  
داخلية للجملة كما يرى الدكتور معن الطائي<sup>(٤)</sup> ، فقد أعطت  
التداولية ( زخماً للسياق بمعاملته سياق مستعمل اللغة وليس سياقاً بحد ذاته ،  
وسياق ليس مجرد عرض للمنظور الجملي كما هو الحال لدى (فون)  
(هاليني) إنه الموقف الاجتماعي الذي يتم الكلام فيه ))<sup>(٥)</sup>. ولذا يتحرك  
السياق التداولي ويتغير كل لحظة ، أنه فعال مثل الناس ، أما بوصف  
اللساني لسياق فجامد لا حيوية فيه لأنه لا يصور التطور بين مستعملي  
اللغة ، ومع اتساع المعلومات عن النحو وعلم الصوت وعلم الدلالة في  
لغات متعددة أضحى واضحاً أن ثمة ظواهر محددة لا يمكن وصفها على  
نحو طبيعي إلا بالاستناد إلى المفاهيم السياقية ، فمن جهة هناك العديد من  
لقوات النحوية التي تبدو أنها لا تتحدد بصورة صحيحة إلا إذا أُشرنا إلى

(3) التأويل بين السيميائيات والتفكيكية /اميرتو ايكو / ص ١٨٧ .

(4) ينظر التداولية منهجاً نقدياً / محرر الأديب النقدي (لتداولية بوصفها منهجاً ..)

صحيفة الأديب العدد ٥٨ / السنة الثانية ٢٠٠٥ م : ص ٢٢

(١) التأويل بين السيميائيات والتفكيكية/ مصدر سابق / ص ١٧٩ .

الظروف التداولية التي ترافقها<sup>(١٦)</sup>، فمثلاً حينما نقول هذه الجملة: (الجو حار). وهي جملة خبرية وتتكون من مسند ومسند إليه، أو من مبتدأ وخبر، فلا يمكن أن نفهم هذه الجملة على بساطتها، إلا إذا الظروف المحيطة بها، وفي أي سياق قيلت، هل قيلت في أفريقيا؟ أم قيلت ونحن في غرفة مزدحمة والشبابيك مغلقة؟ أم قيلت استناداً إلى حديث سابق مع متكلم حول مكان ما قال بأنه بارد؟ أم قيلت في سياق سياسي أو جدل اجتماعي...؟ أو...، فلا يمكن أن نترك المقصد الحقيقي لهذه الجملة إلا بمعرفة السياق الذي قيلت فيه، وقد تتحول إلى جملة إنشائية كما في الاحتمال الثاني أعلاه بمعنى (إفتح الشبابيك) أو (شغل المروحة) ، فهي فعل إنشائي.

وإذا أردنا أن نحدد علاقة التداولية بالحقول اللسانية الأخرى فنجد أن التداولية لها نظامها الخاص أو ميزتها المختلفة عن علم الدلالة والنحو وتحليل الخطاب ولسانيات النفسية والأسلوبية، ولكننا سنتوقف عند علاقتها بالدلالة والنحو لكي لا يتسع البحث إلى حدود أخرى أبعد من الهدف الذي نسعى إليه، فعلم الدلالة يكاد يكون أقرب الحقول إلى التداولية إذ يدرس كلاهما تعليم المتكلم وتأثير التركيب النحوي في السامع، فعلم الدلالة يدرس المعنى في إطار التركيب اللغوي للجملة، أي ليس بالضرورة من خلال السياق، على حين تدرس التداولية كما يتحدّث في السياق الذي ورد فيه.

إن وحدة التحليل كما يرى الدكتور مجيد الماشطة في علم الدلالة هي المعنى، أي معنى الكلمة والعبارة والتركيب الأوسع. ويمكن القول إن وحدة التحليل في التداولية هي وظيفة اللغة، ولتوضيح الفرق دعنا ننظر في هذا المثال ((هناك حصان في الحديقة)) تهتم الدلالة بحقيقة إن الحصان

(2) يُنظر: ما التداولية؟ د. مجيد الماشطة. مصدر سابق / ص ١٧.

وهو حيوان موجود في الحديقة وليس خارجها ، أما التداولية فنهتم بالمعنى الإضافي الذي أراده المتكلم حين قال هذه الجملة ضمن سياق معين أي الغرض الكامن في ذهن هذا المتكلم ،ربما يقصد تحذير الأطفال أو يتحدث مع مخاطب ،ويطلب منه ركوب الحصان عند الخروج ،او يقصد أن الحصان يأكل زرع الحديقة فلا بدأ للمخاطب من طرفه ،أو قد قينت هذه الجملة على لسان نص يخاطب صديقه في نية السرقة .. الخ<sup>(١)</sup>

ندرس الدلالة إذا المعنى العام الثابت المشترك لكل السياقات المحتملة ،وندرس التداولية الحالة التي تحيط بالمعنى الثابت و تتغير من سياق إلى آخر .. أما النحو فيرى اللغة عددا لا محدودا من الجمل ، وبدلاً من قدرة شومسكي اللغوية العمومية تهتم التداولية بتحديد مكونات القدرة التواصلية ،وتذهب إلى عدم تطابق الصيغة النحوية وحدث الكلام ، إذ لا علاقة تلازم بين الشكل النحوي للجملة وما تحققه من حدث الكلام والجملة وحدة لغوية تتحدد بعناصرها الشكلية ولكن التداولية تدرسها بوصفها وحدة للتواصل فهي الأداء وليس القدرة ، ومنما درست النظريات اللسانية مستويات الجملة التركيبية والصوتية الدلالية للكشف عن مجموعة القوانين العامة التي تتحكم في طبيعة العلاقات بين الكلمات في الجملة ، وتوجهت الدراسات التداولية نحو السياق للكشف عن مجموعة القوانين العامة التي نتحكم بتحديد دلالة المنطوق سياقياً ، وقد حول كل من (جرايس) و(ليتس) وضع قواعد للتأدب والمخاطبة والمجاورة مستمدة من السياق الاجتماعي والثقافي وتتجسد لسانياً بالمنطوق، وإن أي خرق أو كسر لمجموعة القوانين السياقية ينتج عنه عدم

<sup>(١)</sup> ينظر : ما التداولية؟ مصدر سابق: ص ١٨ .



التمائل بين المنطوق والسياق وهو ما يسمّى بانعدام الملازمة السياقية كما يذكر الدكتور معز الطائي<sup>(٢)</sup> .

إن ما يحدث في حالة غياب الملازمة السياقية هو (خطأ تداولي) ، وهذا الخطأ لا يمزق قوانين صوتية أو نحوية أو دلالية ، وإنما يحصل نتيجة خرق أحد مبادئ محدّدات سياق الاجتماعيّة وثقافية ، ولكي يتوافر عنصر التطابق بين المنطوق والسياق يجب تأمين شروط عدة من تعطي المنطوق قوته الأدائية فالخلام في التداولية ليس مجموعة جمل مترافعة فيما بينها ولكنه (حديث) ، والتداولية بذلك نقلت حقل دراستها من القدرة إلى الأداء بحسب تقسيم شومسكي كما أشرنا فيما سبق .

فالتداولية أولت أهمية كبيرة للظروف غير اللغوية عن صحة التعبير والمتعلّقة بالسياق والمقام والمتكلمين ومقاصدهم ومسوغات الاستعمال والأفعال اللغوية أو بعبارة انتوليديين أصبحت جزءاً من دراسة الأداء اللغوي.

#### اللحن النحوي في المفهوم التداولي

جرت العادة أن ينسب اللحن (الخطأ) أو يضاف إلى اللغة ، ويقصد به غالب خرق جانبها النحوي أو الصرفي في بعض الأحيان ، وقد يكون الخرق مقصوداً لأسباب أدبية ، وهذا في رأيي ليس خرقاً للمنظومة اللغوية ، وإنما هو خرق مقصود للجملة المعيارية ، وقد يكون ذلك الخرق كامناً في جهل المتكلم في المنظومة اللغوية ، وهذا خرق مؤذ للمنظومة لا يسمح به ولا يند من تصحيحه وضبطه ، وقد يتوسّع اللحن ليشمل مستويات عدّة من بينها المستوى التداولي النحوي ، ومرجعي في هذا الطرح كلام سيبويه ونظيرته النحوية في كتابه ، ومن ذلك ما قاله في (( باب الاستقامة من

<sup>(٢)</sup>التداولية منهجاً نقدياً / مصدر سابق : ص ٢٢ .

لكلام والإحالة<sup>(١)</sup> الذي عدّه بعضهم باباً مجاله الدلالة وسياق التلّفظ في بعد مجرد<sup>(٢)</sup>. يقسّم سيبويه الكلام على النحو الآتي :

- ١- كلام مستقيم حسن \_\_\_\_\_ أتيتك أمس
- ٢- كلام محال \_\_\_\_\_ أتيتك غداً
- ٣- كلام مستقيم كذب \_\_\_\_\_ حملت الجبل
- ٤- كلام مستقيم قبيح \_\_\_\_\_ كي زيد يأتيتك
- ٥- محال كذب \_\_\_\_\_ سوف اشرب ماء النحر أمس

إنّ الكلام المذكور في ٤ و ٥ فيه حرق نابع من الخروج على المنظومة اللغويّة وهو مستقيم نحويّاً ولغويّاً ، ولا بدّ من تصحيحه ورفضه ، أمّا ما ورد في ٣ أو ما أسماه سيبويه (مستقيم كذب) فهو انزياح مقبول وخرق للجملة المعياريّة مع الاحتفاظ بقواعد المنظومة اللغويّة ، فالجملة صحيحة نحويّاً ، ولكن فيها خرق دلاليّ ، وهو ما نسميه باللحن التداولي لا تتطابق فيه النسبة الكلاميّة والنسبة الواقعيّة الخارجيّة والنسبة العقبيّة كما يعبرّ البلاغيون ومن بعدهم التداوليون يقول الشارح أبو سعيد السيرافيّ : " وإنما خصّ المثاليّن ٣ و ٥ بالكذب لأنّ ظاهرهما يدلّ على كذب قائلها فبطل التصفّح والبحث ، وإلّا فكلّ كلام تكلم به وكان يخبر على خلاف ما يوجبه الظاهر فهو كذب ، علم أو لم يعلم ، كقول القائل : نقيت زيدا اليوم ، واشتريت ثوباً ، إذا لم الأمر على ما قال فهو مستقيم كذب " (١) إنّ الكلام المستقيم الكذب كما ورد في المثال الثالث تركيب انتظمت عناصره على وفق نسق لغويّ وقواعديّ مقبول بحافظ على الترتيب والمحلات و آثار

(١) الكتاب : ٢٥/١ .

(٢) يُنظر ملاحظات حول رسالة سيبويه / لمنصف عاشور ، حوليات كنيّة الآداب / تونس ١٩٨٩ : ص ١٨١ .

(٣) شرح الكتاب للسيرافيّ / مخطوط في المكتبة الوطنيّة / دمشق / ص ١٢٩ .

الإعراب ، غير أن للحن يمكن أن يأتيه من جهة دلالة ملفوظه كما أشرنا سابقاً بمعنى علاقته بالواقع ، إذ هو إما صادق وإما كاذب بناءً على المنطق الثنائي القيمة ، كما هو معروف لدى بعض التداوليين .

وينقل الشنتمري - على ما ظن - كلام أبي سعيد السيرافي من دون الإشارة إليه وبضيف (( فلمستقيم في طريق النحو هو ما كان على القصد سالماً من للحن ، فكان مستقيماً من هذه الجهة ، وهو مع ذلك موضوع في غير موضعه ، فهو فييح من هذه الجهة ))<sup>(١)</sup> ، ويستدرك بتفريع جديد ينسبه إلى الأخفش هذه المرة فيقول (( وفيه الخطأ وهو ما لا يتعمده نحو قولك : ضربت زيدا ، هذا من حجة اللفظ مستقيم ، فيقال فيه على قيام ما مضى : مستقيم كذب ومستقيم فييح ، إلا أن سيبويه لم يذكر هذا القسم لأن لفظه لا يدل على خطأ وإنما ظاهره أنه صواب ))<sup>(٢)</sup> .

إن المحال هو ما يناقض ظواهر الطبيعة ، أو يخالف وقوانينها الثابتة ، أو قد يكون غير مستوف لشروط الوجود الواقعية وهو ما يقره التداوليون لكنّه صحيحاً مستقيماً نحوي ، ولكنه محال واقعياً ، وعليه يدخل باب الحرق الأدبي بل التداوليون لا يؤمنون إلا بمقصدية المتكلم في علاقته بالسامع وإن كان الكلام فيه عدم استقامة في انطباع كما ورد سابقاً ، ونجد المحال لدى سيبويه أن تنتقص كلامك بكلامك بما يشكل خرقاً للمنظومة اللغوية أي الوقوع في اللحن النحوي مثل قولك ( أتيتك بعد غد ) لأنه يجمع متناقضين الماضي والمستقبل وهو مناف للقواعد النحوية والفهم .

(١) النكت في تفسير كتاب سيبويه وتبيين الخفي في لفظه وشرح أبياته وغريبه / تحقيق رشيد بلحبيب / ط ١ / المغرب - ص ١ / ٢٠٤  
(٢) المصدر نفسه : ص ١ / ٢٠٤

إن الاستقامة والكذب جهتان متغايرتان وليسنا بالضرورة ذمتلارمتين شأنهما شأن الاستقامة والصدق ، وذلك لاختلاف المعلق ، يقول الدكتور طه عبد الرحمن : (عليه يكون كل قول معنفد مستقيماً سواء صدق أو لم يصدق ، لأن الصدق هو مطابقة الاعتقاد للخارج ولأن الكذب هو مفارقة الاعتقاد للخارج ، لأن الصدق والكذب تابعان للاعتقاد فإذا لم يكن القائل معتقداً لقوله ، فلا يمكن الحكم عليه لا صدقاً ولا كذباً ، إذ ليس الصدق سوى موافقة الاعتقاد للواقع ، والكذب سوى مخالفة هذا الاعتقاد للواقع بدليل وجود لأقوال المجازية ، فلو كان الصدق والكذب لازمين للقول بما هو كذلك ، لكان القول المجازي كاذباً على الدوام حيث إن مناه يخالف ظاهره وإذا فرضنا أن الغالب على المكان الطبيعي أن يكون مجازياً ، فقد صار التواصل به في حكم التكالذب ، وصار التعامل به في حكم التخائل ، وليس الأمر كذلك ، وما ذلك إلا لأن الأصل في تصديق القول أو تكذيبه هو الاعتقاد الذي تحته (١) .

ورأي لدكتور طه عبد الرحمن مخالف لمن ذهب إلى ربط الخبر بالواقع وهو ما ذهب إليه النظام ومن تابعه ، قال النظام ((صدق الخبر مطابفته لاعتقاد المخبر ولو خطأ ، وصدق المتكلم مطابقة خبره للاعتقاد وكذبه عدمها ، وأصبح النظام بقوله تعالى (( وَاللَّهُ يَشْهَدُ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ )) (المنافقون : من الآية ١) ، كذبهم في قولهم ((إنك لرسول الله )) (مع مطابفته للخارج ، لأنه لم يطابق اعتقادهم والجواب إن المعنى لكاذبون في الشهادة) (٢) ، ولنفتراض إن أحدهم قال لك : إن مصر تقع في فارة أوربا

(١) اللسان والميزان أو النكوتر العقلي : د. طه عبد الرحمن : ص ٥٢-٥٣ .  
(٢) كشاف اصطلاحات الفنون / محمد علي التياتوي / تحقيق : لطفي عبد البديع : ٤ / ٢٥٦ ، وفي تفسير الآية بنظر ما قاله الزمخشري في الكشاف : ٤ / ٥٢٦ .

وإن النيل يجري من الشمال إلى الجنوب ، وأن العراق يقع في قارة أفريقيا ، وإن الشاعر محمد مهدي الجواهري درس الطب ونال شهادة فيه عام ٢٠٠٥ . ومن المؤكد أن هذه الجمل مستقيمة نحويًا لمراعاتها ما يقتضيه النحو عموماً على المستوى التركيبي بيد أنها كاذبة أو لاحية تداوليًا لم علم من أن مصر تقع في قارة أفريقيا ، وأن نهر النيل يجري من الجنوب إلى الشمال جغرافياً وواقعياً وأن الشاعر محمد مهدي الجواهري لم يقرب الطب ولم يفقه شيئاً فيه وأنه توفي عام ١٩٩٤ .

واستناداً إلى ذلك نقول حين ينتج المتكلم ملفوظاً كاذباً فإنه يتلفظ بجملة لها على العموم قوة إنجازية إثباتية ومضمون يعتقد المتكلم خطأه ، وهو عندما يعتقد خطأً فلأنه قادر على تأويله دلاليًا ، يعني أنه قادرٌ على تحديد شروط لصدق الجملة، وهكذا فالتحديد الكامل لشروط الصدق بسيرورات تداولية وينتمي إلى سيرورات لسانية وتداولية لتأويل الملفوظ ، ويعتقد بعض الباحثين ، ولاسيما أصحاب الدلالة التصويرية إن الصدق نسبي بالنظر إلى فهمنا للظواهر ، إذ يرتبط صدق الجملة بالطريقة التي نفهم بها العالم حين نسقط عليه اتجاهًا معيناً.

### الصحة النحوية في المفهوم التداولي

يتحدث أهل الصناعة من النحاة عن الإعراب التقديري أو المحلي والإعراب بالحروف أو الحركات أو بالحذف ولا خلاف عندهم في إحالة الإعراب على المستوى الدلالي ، فالإعراب إيانة للمعاني المختلفة (١) والإعراب علم المعاني (٢) ، والأصل في الإعراب أن يكون للفرق بين

(١) يُنظر شرح المفصل لابن يعيش : ٧٨/١ .

(٢) يُنظر الأشباه والنظائر للسيوطي : ١٩١/١ .

المعاني<sup>(3)</sup> ، غير أننا نرى فضلاً عن ذلك أن الإعراب لا يخلو من أسباب وصلات مع المستوى التداولي ، وأعني مع الجانب الدلالي يدخل الجانب التداولي كما أشرنا إليه في مقدمة بحثنا هذا واعني الظل المصاف للدلالة على مستوى المتكلم في إطار السياق المرافق له (وكثيراً ما ستعان سيبويه على توضيح معنى التركيب بوصف الظروف المرافقة للتلفظ بالقول كوصف الظواهر الصوتية أو تحديد العلاقة بين المتكلم والمخاطب أو ذكر أسباب التلفظ بالقول إلى غير ذلك مما ذكره سيبويه عند دراسته لقضايا الحذف أو بيان المعاني المختلفة التي تتل عليها الصيغة الصرفية الواحدة بسبب اختلاف المقام)<sup>(4)</sup> ، والسياق في المفهوم التداولي هو ربط الكلام (الملفوظات) بسياقه النصي و اللساني السابق واللاحق لأن اللغة ليست حساباً منطقياً دقيقاً لكل كلمة معنى محدد ، ولكل جملة معنى محدد فالكلمة الواحدة قد تعددت معانيها بتعدد استخداماتها لها في سياقات مختلفة وتعددت معاني الجملة الواحدة حسب السياق الواردة فيه ، ولهذا فالمعنى لا ينكشف في الفكر التداولي إلا من خلال سياق الوحدة اللغوية ، أي وضعها في سياقات مختلفة ، وعليه تكون دراسة المعاني استناداً إلى سياقات ومواقف وردت فيها حتى ما كان فيها غير لغوي كالتزامن والمكان مثلاً ، وقد اقتنست التداولية مفهوم السياق من اللسانيات الاجتماعية وسعت إلى استثماره وتوظيفه ، والسياق التداولي خاضع لأنماط السياق منه السياق اللغوي والعاطفي والسياق الثقافي ، وإن تأثير السياق النحوي متنوع جداً ويختلف من جملة إلى أخرى بحسب المقام الذي تدور فيه الملفوظات وتداولياً أنه لما كان فهم معنى الكلام

(3) ينظر مع الهوامع للسيوطي : ٦٣/١ .

(4) التركيب في كتاب سيبويه بنظام الجملة وأصول التثنية / محمد السوفي / انطروحة دكتوراه / غير مطبوعة / جامعة محمد الخامس / ص ٥٤ .

متوّفاً على معرفة سياقه فإن الإعراب نفسه هو الآيّة لتحصيل المعنى ويقود على السياق أيضاً ، ونكاد نقول أنه بتعبير بتغيره وهذا ما نبه إليه ابن هشام فيما يحترز منه المبتدئ في صناعة الإعراب لقوله (ربما سرّ به فأعربه بما لا يسنحقه ونسي ما تقدّم له) <sup>(١)</sup> أي نسي سياقه ، وقد يأتي الخلل أيضاً حينما يراعي العرب معنى صحيحاً وهو لا ينظر في صحته من جهة الصناعة ، وهذا مثال يذكره صاحب المغنى على ذلك هو قول بعضهم في (تموداً فما أبهى ) إن تموداً معول مقدم وهذا يمتنع لأنّ ما بعد (إما)) النافية لا يعمل فيما قبلها ، وإنما هو معطوف على ((عاداً)) هو بتقدير (وأهلك تموداً) <sup>(٢)</sup>، ومثلما وقع القدامى في بعض التقدير وقع المحدثون كذلك في عدم الأخذ بسياق الملفوظ وإخضاع الإعراب للمعاني النحويّة وما يتوفّر فيها من مقصدية ، يقول سيويه ناقلاً عن شيخه الخليل الفرهيدي ما بحصي من بعض التراكيب التي تقع فيما نحن فيه من حديث (( فإن النحويين مما يتهونون بالخلف إذا عرفوا الإعراب ، وذلك إن رجلاً من إخوانك ومعرفتك لو أرد أن يخبرك عن نفسه أو عن غيره بأمر فقال أنا عبد الله منطلقاً ، وهو زيدٌ منطلقاً ، كان محالاً ، لأنه إنما أراد أن يخبرك بالإنطلاق ولم يقل هو ، ولا أنا حتى استغنيت أنت عن التسمية لأنّ (هو) و(أنا) علامتان للمضمر ، وإنما يضمّر إذا علم أنك قد تجهله فيه فقلت : من أنت ؟ فقال : أنا عبد الله منطلقاً في حاجتك كان حسناً ) <sup>(٣)</sup> ، إن النص الذي أوردناه يعكس أحد أرقى إنجازات النظرية النحوية في القبول الإعرابي والتداولي للجمل : أنا عبد الله منطلقاً . وهو زيد منطلقاً ففي الوقت الذي

(١) مغني اللبيب . ص ٨٨٦ .

(٢) المصدر نفسه : ٦٩٨ .

(٣) الكتب : ٢ / ٨٠ - ٨١ .

يعرف فيه المخاطب من تعني لا حاجة إلى ذكر الظاهر (عبد الله) و(زيد) لأن الإضمار فعل فصدي داخلي يستبطن اتفاقاً ضمناً بين المتكلمين على المعنى ، أما حين كون السياق غير واضح ، والمقام غير المقام المطلوب حيث لا يوجد اتفاق ولا توافق في المعنى بل هو مجهول لدى المخاطب حينئذ **بـ** نعين التصريح والبيان والتوضيح ، كان سيويه يهتم بمقصديّة المنكلم في السياق الجملي ، وهو ما تبنته التداولية من ضمن ما تبنته من أفكار كثيرة ، ولكي يظهر الفرق جلياً يضع سيويه القاعدة النحويّة في التداولية في أن واحد يقول : ( وإذا ذكرت شيئاً من هذه الأسماء التي هي علامة للمضمر فإنه محال أن تظهر بعدها الاسم إذا كنت تخبر عن عمل أو صنعة غير العمل ، ولا تريد أن تعرفه بأنه (زيد) أو (عمرو) ، وكذلك إذا لم توعده أو تفخر أو تصغر نفسك ، لأنك في هذه الأحوال تعرف ما ترى أنه قد جهل أو تنزل للمخاطب منزلة من جهل فخراً أو تهديداً أو وعيداً ، فصار هذا لتعريفك إياه باسمه) (١) ، إن عزل الجملة تداولياً عن سياقها هو بمنزلة فصلها عن قلبها فكلم من الموافف والجمال التي مرت بنا في أثناء الإعراب سواء أكانت آيات قرآنية أم شواهد شعريّة اضطربت الآراء فيها وضاعت في خضم الجدل العقلي ، ومرد ذلك كله إنك عزلته عن سياقاته العامة في القرآن الكريم أو في القصيدة ، والسياق لا يختص بالجانب اللغوي فحسب بل يتعداه إلى مستوى آخر أكبر وأهم وهو ( السياق المقامي ) ، وفكرة المقام هذه هي المركز الذي تور حوله التداولية ومن قبلها علم الدلالة الوصفي وهو الأساس الذي يقوم عليه الجانب الاجتماعي من وجود المعنى (( وتشير لفظة القدرة التداولية الاجتماعية إلى ملائمة المعنى : ما إذا كان حدث كلام معين مناسباً ، فتشير القدرة اللغوية

(١) لكتاب : ٨٠ / ٢ .



التداولية إلى التحقق اللغوي للمعنى أي إلى أي محال يتمثل معنى ما بشكل مناسب في سياق لغوي اجتماعي معين<sup>(٢)</sup> وقد حاول كل من (جرايس) و (ليتش) وضع قواعد للتأنيب والمخاطبة والسحاوره مستمدة من السياق الاجتماعي والثقافي تتجسد لسانياً بعدم التماثل بين المنصوق والسياق، وهو ما يسمى بانعدام الملاءمة السياقية إن ما يحدث في حالة غياب الملاءمة السياقية هو (خطأ تداولي) وهذا الخطأ لا بمزق قوانين صوتية أو نحوية أو دلالية وإنما يحصل نتيجة حرق بين المنطوق والسياق، يجب تأمين شروط عدة تعطي للمنطوق قونه الادائية فالكلام بالنسبة للتداولية ليس مجموعة جمل مترصفة مع بعضها ولكنه حدث<sup>(٣)</sup>، والتداولية تهتم بمستويات ثلاثة وبالسياق الذي يحيط بها وهي :

١- حدث لقول : أي حدث تقوه جملة بمعنى ما او بالإشارة إلى شخص ما او شيء ما قبل قولك : قال لي ادرسه ، والهاء يعود على الكتاب.

٢- حدث الإنجاز : ما ينجز بقول شيء ما أو الحدث الناجز بنتيجة بقوة المتكلم بشيء كالرهان والوعد والترهيب والتحذير كقولك أمرني بقراءته .

٣- حدث التأثير : يتحقق التأثير بقول شيء ما أي تأثير تقوه المتكلم في السامع الذي قد يصبح مرتاحاً أو مقتنعاً كقولك : أمتعني بقراءته. وزاد التداوليون أمزراً أخرى يجب أن تتوافر في السياق منها : (قواعد اللياقة) و (النوجيهات) و (التعهدات) و (المعينات) ، فإذا نطق أحدهم بجملة (أغلق الباب) فهذا يجب أن يتضمن على صعيد السياق أن لشخص

(٢) ما لتداولية / مجيد الماشطة/ مصدر سابق : ص ١٧ .

(٣) التداولية منجاً نقدياً / مصدر سابق : ص ٢٣ .

لمتكلم أعلى رتبة من المستمع ، وأن الباب في الغرفة مفتوح أساساً ، وأن المستمع (المخاطب) بوضع جسدي يمكنه القيام بفعل غلق الباب ، لإغيا ب أي واحدة من تلك المحددات السياقية سيحدث من عدم التطابق بين المنطوق والسياق ، ثم يحدث ما يسمى بالانزياح السياقي ، فمثلاً في حالة التطابق لسياقي يصبح المنطوق (اغلق الباب) جملة فعلية أمرية اعتيادية وفي حالة كون المتكلم أقل رتبة اجتماعية من المخاطب (حسب ظروف اللياقة) فعندها تصبح جملة (اغلق الباب) ذات مقصدي خاصة تشير إلى خرق في قواعد لتأدب ، وتدل على نوع من الإهانة والتحقير ، أمّا إذا كان الباب مغلقاً أساساً قبل لحظة انطوق الجملة عندها يشير الخرق السياقي إلى انحرف دلالة الجملة ، نحو قول ذي مقصدية سغايرة لغلق الباب ، وقد يكون مقصد لمتكلم ((غلق الموضوع)) وتوقف عن الحديث ((<sup>11</sup>) .

ويذهب الدكتور طه عبد الرحمن إلى أنّ ((القول الطبيعي مجرداً عن مقامه نصير محاملة كثيرة ولا يتعين واحد إلا بتعيين المقام حتى انه يصح الإدعاء بأن الأصل في القول الطبيعي أن تتعدّد معانيه إلى يثبت بالنليل خلاف ذلك ، وإذا كان كذلك ، فقد وجب أن تكون صورة الممكنة متعدّدة ، وإلا ينحصر تقويمها في حتمية واحدة)) (<sup>12</sup>) .

وعليه يمكن القول أنّ النحو غير مستقل بنفسه بكونه مكونات لغوية مجردة ، وان قوائين اللغة المنتجة للجمل مدعوة ، لكي تمتلك الصحة لدلالية والتداولية على مستوى الكلام أن ترتبط بعناصر خارجة عنها ، وتفترض أيضاً أنها بذلك ليست كلاماً جمداً لمعنى مطلق أو مجرد بيد أنه معنى يريد المتكلم أن يعنيه من جهة ، وان يعبر عن موقف محدد في إطار

11) التداولية منهجاً نقدياً /مصدر سابق : ٢٣ .

(2) التكوثر العنفي : ١٥٢ .

سياق محدد وهذا ما أكده بعض النحويين المحدثين مثل الدكتور فاضل السامرائي وقبله الدكتور مهدي المخزومي وآخرون ، باعتبار الجملة بنية جامدة حبة ومداولة بين متكلم ومخاطب ، يراعي فيها المتكلم يأخذ اهتمام مخاطبه فيقدم أو يؤخر ويوزج إن كان المقام يقتضى الإيجاز قد أولت التداولية عناية كبيرة للمتكلم والمخاطب انطلاقاً من الاعتقاد بان الخطاب يتوجه من مرسل إلى مرسل إليه أو من متكلم إلى مخاطب ، ناهيك عن النظر إلى النفاعل اللساني وغير اللساني الذي يوجه الكلام ويحدد مساره إلى درجة ذهب معها (بيتش) إلى أنه لا يمكن أن ندعى فهمنا للكلام من دون استحداث ظروف إنتاجه المحيطة به ، لاسيما عنصر المتكلم والسامع اللذين اعتبرهما ركنين لا غنى عنهما ، ومظهرين مهمين في الحالة التكميلية ، وكما يقول الدكتور طه عبد الرحمن فالكل يعلم أن الخطاب يفترض وجود مخاطب شخصيته يجب أن تتوفر حتى يمكن للمواصفات أن تعمل<sup>(١)</sup>

والشيء نفسه يقال عن المتكلم نفسه (صانع الكلام) ، ونجد الإشارة إلى أن علماء البلاغة العرب قد اجتهدوا في هذا ولاسيما (علم المعاني) وفي أدوار المتكلم والمخاطب في نحاح العملية التواصلية وتوجيهها وتحديد مسارها الدلالي والتداولي ، ونجد الأصوليين نجدهم لا ينظرون إلى الخطاب مجرداً عن صاحبه وملفئه ، وعن وجود العلاقة بين صاحب الخطاب والمخاطب ، بل نظروا إليه كما هو متداول فعلاً بقول الدكتور طه عبد الرحمن : " لا يكون كلاماً حتى تحصل من الناطق إرادة في توجيهه إلى غيره ، وما لم تحصل منه هذه الإرادة ، فلا يمكن أن يُعدّ متكلماً حقاً

<sup>(١)</sup> حوار والاختلاف خصائص وضرابط /مجلة قضايا إسلامية معاصرة /العدد ١٦ / ٢٠٠١/١٧ ص ٢٤٠ .

حتى وإن صادف ما نطق به حضور من يتلقفه لآن المتلقف لا يكون مستمعاً حقاً حتى يكون قد لُقي إليه بما يتلقف مقصوداً بمضمونه هو أو مقصوداً به غيره ، بوصفه واسطة فيه أو قل متى يدرك رتبة المتلقي<sup>(٢)</sup> .  
ولهذا نرى سيبويه يمنع بعض التراكيب لما فيها من ليس محتمل وإيهام للمخاطب بخلاف المقصود من خلال دور المخاطب (المتلقي) في العملية التخاطبية ، فيرى المخاطب أن الدار كلها ذراع ، ولا يجوز أن تقول : بعت ثانتي شاه شاه ، وأنت تريد بدرهم ، فيرى المخاطب أنك بعته الأول فالأول على الولاء ... ولا يجوز تصدقت بمالي درهماً ، فيرى المخاطب أنك تصدقت بدرهم واحد<sup>(٣)</sup> .

(٢) التكوثر العقلي : ٢١٤ .

(٣) الكتاب : ٣٩٣/١ .

### المصادر:

- ١- أصول الحوار وتجديد علم الكلام / طه عبد الرحمن / الدار البيضاء / المؤسسة الحديثة للنشر / ط١ / ١٩٨٧ .
- ٢- الأشباه والنظائر / جلال الدين السيوطي / تحقيق الدكتور طه عبد الرؤوف سعد / شركة الطباعة الفنية المتحدة / لقاهرة / ١٩٧٥ .
- ٣- التاويل بين لسيميائيات والتفكيكية / ميرسو إيكو / ترجمة سعيد بنكراد / المركز الثقافي العربي / المغرب / ط١ / ٢٠٠٠ .
- ٤- التركيب في كتاب سيويه / نظام الجملة وأصول التقدير / محمد الموفي / اطروحة دكتوراه / غير مطبوعة / جامعة محمد الخامس .
- ٥- شرح الكتاب للسيرافي / مخطوط في المكتبة الوطنية / دمشق .
- ٦- شرح المفصل لابن يعيش / عالم الكتب / بيروت / د . ت .
- ٧- الكتاب / سيويه / تحقيق عبد السلام هارون / دار الكتب العلمية / بيروت / ط٣ .
- ٨- كشاف اصطلاحات الفنون / محمد علي التهانوي / تحقيق لطفي عبد البنيع / وزارة الثقافة والإرشاد / مصر ١٩٦٣ .
- ٩- اللسان والميزان أو التكوثر العقلي / د. طه عبد الرحمن / المركز الثقافي العربي ١٩٩٩ .
- ١٠- مدخل إلى السيموطيقا / نصر حامد أبو زيد / سير قاسم / مقالات مترجمة ودراسات / دار إلياس العصريّة / القاهرة ٢٠٠٣ .

١١- مغني النيب عن كتب الأعراب/ تحقيق مازن المبارك ومحمد عليّ  
الحمد / القاهرة . د . ت .

١٢- النحو العربي والمنطق الأرسطي / الأزهرى الريحاني / منشورات  
اتحاد الكتاب الجزائريين / الجزائر / ٢٠٠١ .

١٣- النكت في تفسير كتاب سيبويه وتبيين الخفي في لفظه وشرح أبياته  
وغريبه/ تحقيق : رشيد بلحبيب / ط١ / المغرب / ١٩٩٩

١٤- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع / جلال الدين السيوطي / تحقيق  
عبد السلام محمد هارون والدكتور عبد العال سالم مكرم /  
دار البحوث العلمية / الكويت / ١٩٧٥ - ١٩٧٧ م .

#### الصحف والمجلات:

١- البعث التداولي عند سيبويه / مقبول إدريس / مجلة عالم الفكر / المجلد ٣٣  
في يوليو ٢٠٠٥ .

٢- التداولية اللسانية / د. لسعد بوطاجين (الجزائر) مسحوب من الانترنت  
/ صحيفة الأسبوع / العدد ٩٢٣ في ١١ / ٩ / ٢٠٠٤ .

٣- الحوار والاختلاف / خصائص وضوابط / مجلة قضايا إسلامية  
معاصرة / العدد ١٦ / ١٧ في ٢٠٠١ .

٤- ما التداولية؟ محور الأدب النقدي / صحيفة الأديب / العدد ٥٨ / السنة  
الثانية في ٩ / ٢ / ٢٠٠٥ .

٥- ملاحظات حول رسالة سيبويه / المنصف عاشور / حوليات كلية الآداب  
/ تونس ١٩٨٩ .

